الفصل السادس عشر

الجيوب اليهودية داخل البلاد الأجنبية

١٥٦٤ ــ ١٧١٥

١ ــ الصفارديم ×

ان بقاء اليهود أحياء بعد تسعة عشر قرنا من الشدة والثأر أشبه بلحن كئيب فى تاريخ الجهل ، والكراهية ، والشجاعة ، والمرونة . ذلك أنهم بعد أن حرموا الوطن ، وأكرهوا على التماس الملجأ فى جيوب عنصرية بين أعداء عتاة ، وتعرضوا فى كل لحظة للاهانة والظلم ، وللمصادرة أو الطرد و المذابح الفجائية ، دون أن يكون لهم سلاح يدافعون به عن أنفسهم سوى سلاح الصبر والمكر والتصميم اليائس والايمان بدينهم ــ فانهم عاشوا مغالبين خطوبا وشدائد لم يقو على مغالبتها شعب آخر فى التاريخ ، ولم تتحطم ارادتهم قط ، ومن فقرهم وحزنهم أنجبوا شعراء وفلاسفة بعثوا ذكرى المشترعين والأنبياء العبرانيين الذين وضعوا الاسس الروحية للعالم الغربى .

وكان استئصال شأفة اليهود فى أسبانيا الآن كاملا تقريبا ، فلم يكن لهم من بقاء الاكتيار مختبىء فى الدم الاسبانى ، حتى أن أسقفا أسبانيا استطاع أن يعرب عام ١٥٩٥ عن ارتياحه لأن اليهود المتنصرين أمكن استيعابهم بنجاح بطريق التزاوج بينهم وبين المسيحيين ، وأن أخلافهم الآن مسيحيون أتقياء (٢) . ولكن ديوان التفتيش لم يوافقه على رأيه هذا ففى ١٦٥٤ أحرق عشرة رجال فى كوينكا واثنا عشر فى غرناطة ، وفى ١٦٦٠ قبض على واحد وثمانين فى اشبيلية ، وأحرق سبعة ، بتهمة التمسك سرا بالشعائر اليهودية (٣) .

× ترد لفظة « صفارد » فى التوراة (١) اسما لاقليم فى غربى آسيا انزل فيه المنفيون اليهود بعد استيلاء البابليين على أورشليم . وفى تاريخ لاحق أصبحت الكلمة اصطلاحا عبريا على أسبانيا ، فاصبح اليهود من أصل أسبانى أو برتغالى يسمون الصفارديم .

وفى البرتغال ، على الأخص ، واصل الكثير من المتنصرين فى الظاهر (الكونفرسو conversos أو المارانو) ممارسة اليهودية ونقلها فى عزلة بيوتهم ، ووقع أكثر من مائة منهم ضحايا لديوان التفتيش لأنهم مرتدون (relapsos) بين عامى ١٥٦٥ و ١٥٩٥ (٤) — ووجد اليهود المتسترون مكانا قلقا فى الحياة البرتغالية كتابا ، وأساتذة ، وتجارا ، وماليين ، بل ورهبانا وقسيسين ، على الرغم من كل أخطار الكشف عن حقيقتهم . وكان ألمع الأطباء يهودا متخفين ، وفى لشبونة طورت أسرة منديس شركة مصرفية من أعظم الشركات فى أوربا .

وبعد أن اندمجت البرتغال فى أسبانيا (١٥٨٠) ، زاد نشاط ديوان التفتيش البرتغالى ، ففى السنين العشرين التالية أقيم خمسون احتفالا لادانة المهرطقين ، وحكم على ١٦٢ بالاعدام ، وعلى ٢ر٩٧٩ تائبا بالعقوبات التكفيرية ، وأحرق فى لشبونة (١٦٠٣) راهب فرنسسكانى يدعى ديوجودا أسومساو ، يبلغ الخامسة والعشرين ، بعد أن اعترف باعتناقه اليهودية (٥) . وهاجر الى أسبانيا الكثير من المارانو بعد أن وجدوا ديوان التفتيش البرتغالى أشد وحشية من نظيره الأسبانى . وفى ١٦٠٤ ، بفضل رشوة قدرها ١ر٨٦٠ر٠٠٠ دوكاتية دفعوها لفيليب الثالث ، ورشا أقل لوزرائه ، أقنعوا الملك بأن يحصل من البابا كلمنت الثامن على مرسوم يأمر فيه قضاة التفتيش البرتغاليين بأن يفرجوا عن جميع المارانو المسجونين ويفرضوا عليهم عقوبات روحية فقط . فأطلق فى يوم واحد (١٦ يناير ١٦٠٥) سراح ٤١٠ من هؤلاء الضحايا . ولكن مفعول هذه الرشا وأمثالها كان يضعف بمضي الوقت . ولم يلبث الارهاب البرتغالى أن عاد سيرته الاولى عقب موت فيليب الثالث (١٦٢١) . ففى ١٦٢٣ قبض على مائة من « المسيحيين المحدثين » فى بلدة مونتمور أو نوفو . وفى كوامبرا ، مركز المملكة الثقافى ، قبض على ٢٤٧ فى ١٦٢٦ ، وعلى ٢١٨ فى ١٦٢٩ ، وعلى ٢٤٧ فى ١٦٣١ . وخلال عشرين عاما (١٦٢٠ — ٤٠) أحرق ٢٣٠ يهوديا برتغاليا شخصيا ، و ١٦١ دمية تمثلهم بعد أن هربوا ؛ و « صولح » ٤ر٩٩٥ بعقوبات أخف (٦) . وفر آلاف المارانو من البرتغال كما فروا من قبل من أسبانيا ، مخاطرين بحياتهم وتاركين ثروتهم خلفهم الى أركان المسكونة كلها .

والتمست الكثرة العظمى من منفيى الصفارديم ملاذا فى بلاد المسلمين ، وكونوا أو انضموا الى مستوطنات يهودية فى شمال أفريقية وسالونيك ، والقاهرة ، والآستانة ، وأدرنة ، وأزمير ، وحلب ، وايران . فى هذه المراكز تعرض اليهود لقيود سياسية واقتصادية ، ولكن ندر أن تعرضوا لاضطهاد بدنى . وبلغ اليهود مكانة مرموقة لا بوصفهم أطباء فحسب ، بل مشاركين فى شئون الدولة . من ذلك أن يوسف ناصي ، أحد المارانو كان مقربا لسليم الثانى ، وكان بصفته دوق ناكسوس (١٥٦٦) يتسلم ايراد عشر جزر فى الأرخبيل(٧) . وكان يهودى ألمانى يدعى سليمان بن ناثان أشكنازى سفيرا لتركيا فى فيينا فى ١٥٧١ ، ودخل فى مفاوضات هناك لابرام صلح أنهى الحرب حينا مع الباب العالى .

أما فى ايطاليا فان حظوظ اليهود كانت بين صعود وأفول تبعا لحاجات الادواق والبابوات وأمزجتهم . ففى ميلان ونابلى ، وكلاهما كانت تحكمه أسبانيا ، كادت الحياة تستحيل عليهم ، وفى عام ١٦٦٩ طردهم مرسوم صريح من جميع الممتلكات الاسبانية . أما فى بيزا وليفورنو (لجهورن) فقد منحهم كبار الأدواق التوسكانيون الحرية الكاملة تقريبا ، لحرصهم على تنمية تجارة هذين الثغرين الحرين . وصدر فى ١٥٩٣ مرسوم للتجار فى هاتين المدينتين كان فى حقيقته دعوة موجهة للمارانو « نود ألا يقوم أى ... تحقيق دينى ، أو افتقاد ، أو تنديد ، أو اتهام . ضدكم أو ضد أسركم ، حتى ولو كانوا فيما مضي يعيشون خارج أملاكنا متخفين كمسيحيين ، أو تسموا بأسماء المسيحيين (٨) » ونجحت الخطة ، وازدهرت ليفورنو ، واشتهرت جاليتها اليهودية — التى لم تفقها عددا سوى جالبتى رما والبندقية — بثقافتها كما اشتهرت بثرائها .

أما مجلس شيوخ البندقية فكان يطرد اليهود المرة بعد المرة خوفا من علاقاتهم بتركيا ، ويسمح لهم المرة بعد المرة بالعودة باعتبارهم عنصرا ذا قيمة لا فى التجارة والمالية فحسب بل فى الصناعة أيضا ، فقد استخدمت المشاريع اليهودية فى البندقية أربعة آلاف عامل مسيحى (٩) . واستوطنها اليهود الألمان والشرقيون كما استوطنها اليهود الصفارديم ، وبسط مجلس الشيوخ عليهم حمايته من ديوان

التفتيش • وكانوا كلهم تقريبا يعيشون فى حى اليهود ، « الجوديكا » ، ولكنهم لم يلزموا بسكناه ، وكان هذا « الغيت ghetto » يضم الكثير من الأسر الغنية ، والبيوت الجميلة ، ومجمعا مؤثثا تاثيثا فاخرا بنى فى ١٥٨٤ ، ثم أعيد بناؤه فى ١٦٥٥ باشراف المعمارى الشهير بلداسارى لونجينا • وكان يهود البندقية الستة الآلاف أرقى ثقافة من أى جالية يهودية فى هذا العصر •

واستقرت فى فرارا حوالى ١٥٦٠ مستوطنة من المارانو القادمين أصلا من البرتغال ، ولكنها شتتت فى ١٨٥١ بأمر البابا ، الذى فعل هذا تحت ضغط ديوان التفتيش البرتغالى • وفى مانتوا كان أدواق جونزاجو يحمون اليهود ، ولكنهم يسلبونهم دوريا بالتبرعات و « القروض » ، وفى ١٦١٠ أجبر جميع يهود مانتوا على مسكنى حى مسور لليهود تقفل بواباته عند الغروب وتفتح فى الفجر (١٠) • فلما تفشي الطاعون فى مانتوا اتهم اليهود بأنهم هم الذين جلبوه اليها ، وحين استولى جنود الامبراطور على المدينة ابان حرب الوراثة المانتوية ، نهبوا حى اليهود تماما ، واغتصبوا ٨٠٠ر٠٠٠ سكودى جواهر ونقودا ، وأمروا اليهود أن يرحلوا عن مانتوا خلال ثلاثة أيام غير آخذين من مقتنياتهم الا ما يستطيعون حمله (١١) •

أما فى روما ، حيث درج البابوات من قبل على حماية اليهود ، فانهم بعد عام ١٥٦٥ (باستثناء سيكستوس الخامس) أصدروا سلسلة طويلة من المراسيم المعادية لهم • فأمر بيوس الخامس (١٥٦٦) جميع السلطات الكاثوليكية بأن تطبق تطبيقا كاملا كل ما فرض على اليهود من قيود وحدود دينية • فلا بد منذ الآن أن يقصروا على أحياء معزولة عزلا ماديا عن السكان المسيحيين ، وعليهم أن يلبسوا شعارا أو ثوبا مميزا ، ولاحق لهم فى تملك الأرض ، ولا فى أن يكون لهم أكثر من مجمع واحد فى أية مدينة • وفى ١٥٦٩ ، بمقتضي مرسوم بابوى اتهم اليهود بالربا ، والقوادة ، والشعوذة ، وفنون السحر ، أمر بيوس الخامس بطرد جميع اليهود من الولايات البابوية فيما عدا مدينتى أنكونا وروما (١٢) • وحرم جريجورى الثالث عشر (١٥٨١) على المسيحيين استخدام الأطباء اليهود ، وأمر بمصادرة الكتب العبرية ، وجدد (فى ١٥٨٤) الزام اليهود بالاستماع الى مواعظ هدفها هدايتهم

الى المسيحية . وأنهى سبكستوس الخامس هذا الاضطهاد بعض الوقت ، ففتح حى اليهود (١٥٨٦) ، وسمح لليهود أن يسكنوا أنى شاءوا فى الولايات البابوية ، وأعفاهم من ارتداء أى شارة أو لباس مميز ، وأذن لهم بطبع التلمود وغيره من المؤلفات العبرية ، ومنحهم حرية العبادة كاملة ، وأمر المسيحيين بأن يعاملوا اليهود ومجامعهم بالاحترام والرأفة (١٣) . ولكن هذه البابوية المسيحية كانت قصيرة الأجل ، فقد جدد كلمنت الثامن مرسوم الطرد (١٥٩٣) . وما حل عام ١٦٤٠ حتى كان جميع يهود ايطاليا تقريبا يسكنون الغيت ، فاذا بارحوه كان عليهم أن يلبسوا شارة تدل على سبطهم ، وحرموا من الاشتغال بالزراعة أو الانتماء الى الطوائف الحرفية . وقد وصف مونتينى أثناء جولته فى روما عام ١٥٨١ كيف كان اليهود فى السبت يلزمون بارسال ستين من شبابهم الى كنيسة سنتانجيلو فى بسكيريا ليستمعوا الى عظات تحضهم على اعتناق المسيحية (١٤) . وقد شهد جون ايفلين احتفالا كهذا فى روما (٧ يناير ١٦٤٥) ، ولاحظ أن « الاهتداء أمر نادر جدا » وكان كثير من خصائص اليهود المنفرة ، سواء البدنية والخلقية ، نتيجة لطول الحبس والذل والفقر .

أما فى فرنسا فقد كان اليهود من الناحية النظرية خاضعين لجميع القيود التى طلب بيوس الخامس فرضها عليهم ، أما من الناحية الفعلية فقد أكسبتهم أهميتهم فى الصناعة والتجارة والمالية تسامحا صامتا . وقد أكد كولبير فى أحد أوامره المزايا التى تحصل عليها مرسيليا من مشروعات اليهود التجارية (١٥) . واستقر لاجئو المارانو فى بوردو وبايون ، وبلغ اسهامهم فى الحياة الاقتصادية لجنوب غربى فرنسا مبلغا حمل السلطات على السماح لهم بممارسة شعائرهم اليهودية فى تخف يقل شيئا فشيئا . ولما غزا جيش من المرتزقة بوردو فى ١٦٧٥ ، خشى مجلس المدينة أن يعطل نزوح اليهود المرتاعين فى أعداد كبيرة عن المدينة ثراءها ، فبدونهم ـ كما قال ناظر ملكى فى تقريره ـ ستخرب لا محالة تجارة بوردو والاقليم بأسره (١٦) » . وبسط لويس الرابع عشر حمايته على الجالية اليهودية فى متز ، فلما عذب القضاة المحليون يهوديا حتى الموت (١٦٧٠) لاتهامه بقتل طفل قتلا طقسيا أدان الملك اعدام الرجل قائلا انه جريمة قتل ارتكبها القضاء ، وأمر

ـأن تعرض بعد ذلك الاتهامات الجنائية لليهود على المجلس الملكى (١٧) . وقرب ختام حكم لويس ، حين أفضت حرب الوراثة الاسبانية بالحكومة الفرنسية الى شفا الافلاس ، وضع المالى اليهودى صموئيل برنار ثروته تحت تصرف الملك ، ودان الملك المتكبر بالشكر المعونة « أعظم مصرفى فى أوربا (١٨) » .

٢ - أورشليم الهولندية

لعبت هجرة اليهود من أسبانيا والبرتغال دورا (مبالغا فيه احيانا) (١٩) فى انتقال الزعامة التجارية من هاتين الدولتين الى الأراضي المنخفضة . هناك قصد اليهود المنفيون أنتورب أولا ، ولكن فى ١٥٤٩ أمر شارل الخامس بأن يطرد من الأراضي المنخفضة كل المارانو الذين دخلوها من البرتغال فى السنوات الخمس الاخيرة . والتمس عمد أنتورب الاستثناء من هذا المرسوم ، ولكنه نفذ ، واستأنف المهاجرون الجدد بحثهم عن وطن يلجأون اليه . وفقدت أنتورب تفوقها التجارى لا نتيجة لهذه الهجرة الجزئية ، بل للخطوب التى ألمت بالمدينة فى حرب التحرير ومعاهدة وستفاليا ، التى أقفلت الشلت فى وجه الملاحة .

واجتذبت حرية العبادة فى الاقاليم المتحدة ، تلك الحرية المتزايدة رغم ما شابها من نقص ، اليهود الى المدن الهولندية - الى لاهاى ، وروتردام ، وهارلم ، وأهم من ذلك كله أمستردام . هناك ظهر يهود المارانو فى ١٥٩٣ ، وبعد أربع سنين افتتحوا مجمعا لهم . وكانت العبرية لغة عبادتهم ، والاسبانية أو البرتغالية لغتهم فى حياتهم اليومية . وفى ١٦١٥ ، وبعد تقرير وضعه هوجو جروتيوس ، أقرت سلطات المدينة رسميا وجود الجالية اليهودية ، ومنحتها حرية العبادة، ولكنها منعت اليهود من التزاوج مع المسيحيين ومن التهجم على الدين المسيحى (٢٠) ، ومن هنا هذا الذعر الذى استولى على رؤساء المجمع حين مست هرطقات أوريل أكوستا وباروخ سبينوزا أسس العقيدة المسيحية .

وكان من بين اليهود نفر من أغنى التجار فى الثغر المزدهر وكانوا يديرون قسما هاما من التجارة الهولندية مع شبه الجزيرة

الاسبانية ، ومع جزر الهند الشرقية والغربية • وفى احدى المناسبات ، فى زفاف فتاة يهودية ، كان أربعون من الضيوف يمتلكون ثروات جملتها أربعون مليون فلورين (٢١) • وفى ١٦٨٨ ، حين كان رئيس الدولة وليم الثالث يخطط لحملته التى قام بها ليظفر بتاج انجلتره ، أقرضه اسحاق سواسو — فيما روى — مليــونى فلورين دون فائدة قائلا « اذا حالفك الحظ ستردها الى ، والا فانى راض بأن أخسرها (٢٢) » • وكان بعض هذا الثراء لافتا للنظر فوق ما ينبغى ، مثال ذلك أن داود بنتو أسرف فى تزيين بيته اسرافا حمــل الســلطات المدنيــة على توبيخه (٢٣) ، على أننا يجب أن نضيف أن آل بنتو تصدقوا بالملايين على مشروعات البر اليهودية والمسيحية (٢٤) • وكان من وراء هــذه الواجهة الاقتصادية حياة ثقافية نشطة ، حفلت بالعلمــاء والأحبــار والأطباء والشعراء والرياضيين والفلاسـفة • وكانت المدارس توفــر التعليم ، وأصدرت مطبعة عبرية أسسها منسي بن اسرائيــل فى ١٦٢٧ عددا كبيرا من الكتب والنشرات ، وسوف تكون أمستردام طوال القرنين التاليين مركز التجارة اليهــودية فى الكتب • وفى ١٦٧١ — ٧٥ دلت الجالية البرتغالية — اليهودية على ثرائها بتشييد المجمع البــديع الذى ما زال أحد معالم امستردام ، وقيل ان المسيحيين ساهموا فى تكريسه • لقد كانت لحظة سعيدة فى حياة اليهود المحدثين •

على أن هذه الشمس كان يشوبها الكلف • فحوالى ســنة ١٦٣٠ وفد اليهود الاشكنازيم (أى الشرقيون ×) على أمستردام من بولنده وألمانيا • وكانوا يتكلمون لهجتهم الالمانية ، وأنشاوا مجمعا خاصا بهم ، وتكاثروا سريعا ، وأثاروا الكثير من العداء بين يهود الصفارديم ، الذين كانوا فخورين بما يزوهم به من لغة ، وثقافــة ، ولباس ، وثروة ، ونظروا الى التزاوج مع اليهود الاشكنازيم كأنه مروق عن الدين • وتكون داخل جماعة الصفارديم انقسام طبقى ، فكان صغار الحرفيين والفقراء

× يظهر لفظ « اشكنازى » لاول مرة فى الاصحاح العاشر والعدد الثالث من سفر التكوين اسما لحفيد بعيد من أحفاد نوح ، وفى الاصحاح ١١ والعــدد ٢٧ من سفر أرميا اطلق على مملكة فى غرب آسيا ، واطلقه الاحبار فى العصــور الوسطى على المانيا لأسباب نجهلها ، وأصبح لفظ « الاشكنازيم » مرادفا ليهود المانيا ، وبولنده ، وروسيا •

المتكاثرون ينددون بـ « أصحاب الملايين » الذين يسيطرون على سياسة المجمع وموظفيه ٠ وقد ورد فى هجاء معاصر .« ان الريال يحل ويربط ، وهو يرفع الجهال الى أكبر المناصب فى المجتمع (٢٥) » ٠ وكان القادة الفكريون ـ شارل ليفى مورتيرا ، واسحاق أبوآب دا فونسيكا ، ومنسي بن اسرائيل ـ رجالا ذوى كفاية ونزاهة ، ولكنهم كانوا محافظين بحذر فى شئون السياسة والدين والاخلاق ٠ وأصبحوا متزمتين تزمت الأسبان الذين اضطهدوا أسلافهم ، ومارسوا التفتيش اليقظ عن الهرطقات المحتملة (٢٦) ٠

وترك منسي بن اسرائيل بصمته على التاريخ بفتح انجلتره لليهود من جديد ٠ ولد فى لاروشيل لأبوين من المارانو وصلا حديثا من لشبونة ، وأخذ الى امستردام فى طفولته ، وانقطع لدرس العبرية والاسبانية والبرتغالية واللاتينية والانجليزية ، واختير وهو فى الثامنة عشرة واعظا لمجمع نيفه شالوم ٠ وقد سر المسيحيين واليهود على السواء بتأليفه « ال كونسليادور » ليوفق بين التناقضات المزعومة فى التوراة ٠ وكان له الكثيرون من المراسلين والاصدقاء المسيحيين ـ هويت ، وجروتيوس ، وكرستينا ملكة السويد ، وديونيسيوس فوسيوس الذى ترجم كتابه الى اللاتينية ، ورمبرانت الذى حفر صورته فى ١٦٣٦ ٠ وأهم من ذلك أنه أثار اهتمام الحالمين من المسيحيين لأنه بشر بقرب مجىء « مسيا » يحكم الأرض ٠

ذلك أن منسي كان قبلانيا ومثاليا صوفيا يحلم بقرب العثور على أسباط اسرائيل العشرة المفقودة وتوحيدها ، وبأنهم ربما كانوا الهنود الامريكيين ، وبأن اليهود سيسمح لهم بالعودة الى انجلتره واسكندناوه، وبأن الارض المقدسة ستعاد عندئذ لاسرائيل فى كل مجد المسيا ٠ وراسله البيورتان من شيعة الملكية الخامسة فى انجلتره ، ومع أن مسيحهم المنتظر لم يكن مسيحه ، فانهم رحبوا بآرائه فى قرب مجىء ملكوت الله ٠ واذ وجد هذا التشجيع فانه نشر (١٦٥٠) رسالة عن تطلعات اسرائيل ، يناشد فيها السلطات أن ترد اليهود الى انجلتره ٠ وقدم لترجمة لاتينية للكتاب بمقدمة موجهة الى البرلمان الانجليزى ، وبين أن عودة اليهود الى وطنهم سيسبقها طبقا لنبوات الكتاب المقدس تشتتهم فى جميع الاقطار ، ورجا الحكومة الانجليزية أن تعين على

تتحقيق هذا الشرط الأولى بقبول اليهود فى انجلتره والسماح لهم يممارسة دينهم وبناء مجامعهم • وأعرب عن أمله فى أن يؤذن له بالمجىء الى انجلتره ليساعد فى تكوين مجتمع عبرى •

وكان كرومويل ميالا لاجابة هذا الطلب ، فقال « ان تعاطفى عظيم مع هذا الشعب المسكين الذى اختاره الله وأعطاه ناموسه (٢٧) ». وبعث اللورد مدلسكس ، ربما ممثلا للبرلمان برسالة اقرار بالجميل وشكر « لأخى العزيز ، الفيلسوف العبرى ، منسي بن اسرائيل » • وزار السفير الانجليزى فى هولنده منسي ، فاستقبل بالموسيقى والصلاة العبريتين (أغسطس ١٦٥١) • ولكن فى أكتوبر أقر البرلمان قانون ملاحة وجه بشكل ظاهر ضد التجارة الهولندية ، وأفضت المنافسة التجارية الى الحرب الهولندية الاولى (١٦٥٢ ـ ٥٤) ، وكان على منسي أن يتريث حتى تواتيه الفرصة ، وتلقى « برلمان بيربون » (١٦٥٣) بالرضا طلبه المجدد ، وأرسل اليه اذنا بدخول انجلتره فى أمان ، فلما وضعت الحرب أوزارها أيد كرومويل الدعوة ، وفى أكتوبر ١٦٥٥ عبر منسي وابنه البحر الى انجلتره •

٣ ـ انجلتره واليهود

لم يكن مسموحا لليهود بالعيش فى انجلترة فى الفترة بين طردهم منها فى ١٢٩٠ وتقلد كرومويل السلطة فى ١٦٤٩ •وربما ظهر بعض الباعة اليهود المتجولين فى القرى ، وبعض تجارهم وأطبائهم فى المدن ، ولكن كل ما كان يعرفه الاليزابيثى تقريبا عن اليهود أو يراه فيهم كان مصدره الأقاويل أو المؤلفات المسيحية • من هذين المصدرين استقى مارلو شخصية باراباس وشكسبير شخصية شيلوك •

وظن بعض النقاد (٢٨) أن شكسبير كتب « تاجر البندقية » استجابة لاقتراح من فرقته بالافادة من عاصفة العداء للسامية التى أثارتها فى انجلترة حديثا قضية رودريجو لوبيز ، الذى أعدم عام ١٥٩٤ لما قيل من محاولته تسميم الملكة اليزابث • وقد ولد لوبيز هذا فى البرتغال لأبوين يهوديين ، وأقام بلندن فى ١٥٥٩ ، وشق طريقه الى التفوق فى مهنة الطب • واستخدمه ايرل ليستر طبيبا له ، فاتهم

بمساعدته على التخلص من أعدائه بالسم ، وفى ١٥٨٦ أصبح كبير أطباء الملكة . وقد عالج فيمن عالج ايرل اسكس الثانى ، ولكنه أثار عداءه لأنه أفشي سر علله . وحوالى ١٥٩٠ انضم الى فرانسس والسنجهام فى دسائس مع بلاط أسبانيا ضد دوم أنطونيو ، المطالب بعرش البرتغال ، وتلقى خاتما من الماس قدر يومها بمائة جنيه ، من عملاء فيليب الثانى فيما يبدو . وفى ١٥٩٣ قبض على اسطفان داجاما فى بيت لوبيز بتهمة التآمر على أنطونيو ، وقبض على آخرين ، واتهمت بعض الاعترافات لوبيز بالاشتراك فى مؤامرة ضد اليزابث . وتزعم اتهام الطبيب اسكس ، الذى كان يؤيد أنطونيو ، فلما وضع لوبيز على دولاب التعذيب ، اعترف بأنه تلقى وتكتم عرضا بخمسين ألف دوكاتية ليدس السم للملكة ، ولكنه زعم أنه لم يقصد الا لسلب مال ملك أسبانيا . فشنق هو واثنان آخران وأفرغت أحشاؤهم وقطعوا أرباعا . وقد أعلن وهو يلفظ أنفاسه أنه يحب الملكة ويحب المسيح ، وهو ما أثار احتقار المتفرجين (٢٩) . وأخرج شكسبير ، الميال الى اسكس ، « تاجر البندقية » بعد هذا الاعدام بشهرين ، ولا بد أن كثيرا من المستمعين للمسرحية لاحظوا أن اسم الضحية التى أراد شيلوك البطش بها كان أنطونيو .

وقد خفف انتشار الكتاب المقدس ، الذى عجلت به ترجمة الملك جيمس ، من حدة العداء لليهود لأنها وثقت معرفة انجلترة بالعهد القديم . وتغلغلت أفكار العبرانيين القدماء ومشاعرهم فى فكر البيورتان وعباراتهم . وبدت لهم حروب اليهود صورة سابقة لحروبهم مع تشارلز الاول ، وكان يهوه رب الجنود - على نحو ما - أنسب لحاجاتهم من ملك السلام الذى جاء وصفه فى العهد الجديد . ورسم الكثير من الكتائب البيورتانية أسد يهوذا على راياتهم ، وسار أعوان كرومويل « ذوو الجوانب الحديدية » الى المعركة وهم يتغنون بأغانى كتابية . واذ قبل البيورتان أدب التوراة الرائع على أنه كلمة الله بحذافيرها ، فانهم أحسوا بأنهم مضطرون الى الاعتراف باليهود مختارين من الله ليكونوا المتسلمين المباشرين لوحيه ، وأخبر واعظ منهم شعب كنيسته أن اليهود ينبغى أن يظلوا مكرمين باعتبارهم مختارى الله ، وسمى بعض جماعة « المسوين » أنفسهم يهودا (٣٠) . وشعر كثير من البيورتان أن تأكيد المسيح الصريح لناموس موسي يرجح رفض بولس اياه ، وحملوا جميع

المسيحيين المتمسكين بالكتاب المقدس على الالتزام بممارسة ذلك الناموس • واقترح احد قادة البيورتان ، وهو اللواء توماس هاريسون ، وكان من ألصق مساعدى كروموبل به ، جعل الشريعة الموسوية جزءا من القانون الانجليزى (٣١) • وفى ١٩٤٩ قدم مشروع قانون لمجلس العموم بتغيير يوم الرب من الاحد الوثنى الى السبت اليهودى • فالانجليز أيضا هم الآن — فى زعم البيورتان — شعب الله المختار •

وكانت جماعة صغيرة من المارانو سكنت لندن على عهد جيمس الأول (١٦٠٣ — ٢٥) • وكانوا أول الأمر يختلفون الى الصلوات المسيحية ، ولكنهم بعد ذلك لم يعبأوا باخفاء ولائهم لليهودية • وشارك الماليون اليهود أمثال انطونيو كارفاجال فى تلبية حاجات البرلمان الطويل والجمهورية للمال (٣٢) • فلما تقلد كروموبل السلطة استخدم التجار المارانو مصادر للمعلومات الاقتصادية والسياسية المتصلة بهولندة وأسبانيا ، ولاحظ فى شيء من الحسد ما أصابته التجارة الهولندية من توفيق يرجع بعضه الى تدفق اليهود وعلاقاتهم الدولية •

وبعد أن وصل منسي بن اسرائيل الى انجلترة بقليل استقبله كروموبل ، ووضع مسكنا فى لندن تحت تصرفه • وقدم منسي ملتمسا ، ونشر عن طريق الصحف « اعلانا » بالمبررات الدينية والاقتصادية الداعية للأذن اليهود بدخول انجلترة • وبين السبب فى أن اليهود اضطرتهم القيود القانونية ، وعدم أمنهم المادى والمالى ، الى الزهد فى الزراعة والاقبال على التجارة • وأشار الى أن يهود أمستردام يرتزقون من الاستثمار فى التجارة لا من اقراض المال ، وأنهم لا يتعاملون بالربا بل يضعون أموالهم السائلة فى مصارف ويقنعون بفائدة قدرها خمسة فى المائة على ودائعهم • ودلل على انعدام أى اساس للأسطورة التى زعمت أن اليهود يقتلون الاطفال المسيحيين ليستعملوا دمهم فى الشعائر الدينية • وأكد للمسيحيين أن اليهود لا يبذلون محاولات ليفتنوا الناس عن دينهم • واختتم بطلب السماح لليهود بدخول انجلترة ، شريطة أن يقسموا يمين الولاء للملكة ، وبان يمنحوا الحرية الدينية ، والحماية من العنف وأن يقضي أحبارهم وقوانينهم فى خلافاتهم دون اضرار بالقانون والمصالح الانجليزية •

وفى ٤ ديسمبر ١٦٥٥ ، جمع كرومويل فى هوايتهول مؤتمرا من الفقهاء وكبار الموظفين ورجال الدين للبحث فى قبول اليهود • ودافع هو شخصيا عن الفكرة بقوة وفصاحة ، مؤكدا الجانب الدينى والاقتصادى اذ لا بد من تبشير اليهود بالانجيل الطاهر ، ولكن « أنستطيع تبشيرهم اذا لم نحتمل عيشهم بين ظهرانينا (٣٣) ؟ » ولم تلق حججه تعاطفا كثيرا • وأصر رجال الدين على أن لا مكان لليهود فى دولة مسيحية واعترض ممثلو التجارة بأن التجار اليهود سينتزعون التجارة والثروة من أيدى الانجليز • وقرر المؤتمر أن اليهود لا يستطيعون المقام فى انجلترة « الا بأذن خاص من سموه (٣٤) » •

لقد كان الرأى العام معاديا لقبولهم عداء طاغيا • وذاعت شائعات زعمت أن اليهود اذا سمح لهم بدخول انجلترة سيحولون كتدرائية القديس بولس الى مجمع يهودى • وأصدر وليم برين (١٦٥٥ ــ ٥٦) كتابا سماه « اعتراض موجز » جدد فيه الاتهامات القديمة لليهود بأنهم يزيفون العملة ويقتلون الاطفال ، وكان قد أثار زوبعة قبل ذلك بعشرين سنة بهجومه على المسرح الانجليزى فى كتابه Historiomastix ورد بيورتانى متحمس يدعى توماس كوليز على برين ، ولكنه أضعف حججه بمطالبته باكرام اليهود باعتبارهم شعب الله المختار • ونشر منسي نفسه (١٦٥٦) « دفاعا » ناشد فيه روح الانصاف فى الشعب الانجليزى • وقال أيستطيعون حقا أن يصدقوا «تلك الفرية العجيبة الرهيبة ••• التى تزعم أن اليهود اعتادوا الاحتفال بعيد الفطير، بتخميره بدم بعض المسيحيين الذين قتلوهم لذلك الغرض ؟ » وقال كم من مرة فى التاريخ افترى شهود الزور بمثل هذه التهم أو لم يؤيدها غير اعترافات انتزعت بالتعذيب ، وكم من مرة وضحت براءة اليهود المتهمين بها بعد اعدامهم • ثم اختتم بايمان وحرارة مؤثرين قائلا :

« والى الشعب الانجليزى الأكرم أرفع رجائى المتواضع بأن يعيدوا قراءة حججى دون تحيز ، ••• مسلما نفسي تماما الى فضلهم ورضاهم، متضرعا الى الله بحرارة أن يتفضل ويعجل بالوقت الذى وعد به (النبى) صفنيا ، يوم نخدمه تعالى جميعا برأى واحد ، وبطريقة واحدة ، ويكون لنا كلنا رأى واحد ، وأنه بما أن اسمه واحد ، فكذلك تكون مخافته واحدة ، ونرى جود الرب (تبارك اسمه الى الابد) وتعزيات صهيون (٣٥) » •

ولكن الدعاء لم يكسب الشعب الانجليزى ، ولم يظفر منسي بقبول رسمى لليهود . وطرح كروموبل المشكلة جانبا فى غمرة جهوده لحماية حكومته وحياته ، ولكنه أجاز منسي بمعاش سنوى قدره مائة جنيه (لم يدفع قط) من الخزانة العامة . وفى سبتمبر ١٦٥٧ مات ابن منسي . وأعانته منحة من حامى الجمهورية على نقل جثة ولده الى هولنده لدفنها ، ولكن « الرسول المبعوث الى انجلترة » مات فى مدلبورج فى ٢٠ نوفمبر بعد أن أعياه السفر وهده الحزن ، غير مخلف من المال ما يكفى لتشييع جنازته .

على أنه فى واقع الامر لم يفشل فى مهمته . كتب ايفلين فى « يوميته » تحت يوم ١٤ ديسمبر ١٦٥٥ « الآن قبل اليهود » لم يبح عودتهم الى انجلترة شرعا أى مرسوم من حامى الجمهورية ، أو قانون من البرلمان ، ولكن أعدادا متزايدة دخلت بموافقة كروموبل الصامتة . وفى ١٦٥٧ سمح ليهود لندن ببناء مقبرتهم الخاصة بوصفهم يهودا لا مسيحيين ، وما لبثوا أن افتتحوا مجمعا ومارسوا شعائرهم فى هدوء . فلما عادت الملكية الى انجلترة ، تذكر تشارلز الثانى الدعم المالى الذى تلقاه فى منفاه بهولندة من منديس دا كوستا وغيره من العبرانيين ، وأدرك المنافع التى حصلت عليها انجلترة من المشروعات التجارية التى اضطلع بها يهود لندن ، فأغضي عن المزيد من الهجرة اليهودية لانجلترة . وواصل وليم الثالث هذا الموقف المتسامح وهو يذكر كذلك معونة اليهود ، وذلك برغم شكاوى التجار ورجال الدين الانجليز المتكررة . واكتسب سليمان مدينا أول لقب فروسية يهودى بخدماته متعهدا للجيش لوليم الثالث وملبره (٣٦) . وما أقبلت سنة ١٧١٥ حتى كان السماسرة اليهود يعملون فى سوق لندن المالية ، والماليون اليهود قوة صغيرة فى البلاد . وفى عام ١٩٠٤ احتفل اليهود الانجليز بالذكرى الثلاثمائة لمولد منسي .

٤ ـ الأشكنازيم

فى سنة ١٥٦٤ كانت بقية لا يستهان بها من المستوطنات اليهودية باقية فى ألمانيا لا سيما فى فرانكفورت ـ أم ـ مين ، وهامبورج ، وفورمز ، برغم الحملات الصليبية الوسيطة ومئات التقلبات . غير أن

حركة الاصلاح البروتستنتى لم تكن قد خففت من تلك الكراهيــة التى أحس بها المسيحيون نحو شعب غريب لم يستطع أن يقبل المسيح علــى أنه ابن الله ، بل زادتها حدة . ففى فرانكفورت حرم على اليهود أن يبرحوا حيهم الا لأمر عاجل ، ولم يكن مباحا لهم استضافة زوار من خارج المدينة دون علم القضاة ، وكان عليهم أن يضعوا على ملابسهم شعارا أو لونا خاصا ، وأن تحمل بيوتهم علامات مميزة كثيرا ما كانت غريبة قبيحة المنظر . وقد اشترت رشوة موظفى المدينة أحيانا الاعفاءات من هذه القيود المذلة ، ولكن عداء أفراد الشعب البسطاء كان خطرا دائما يتهدد حياة اليهود وممتلكاتهم . مثال ذلك ما حدث فى سبتمبر ١٦١٤ ، حين اقتحم جمع مسيحى باب حى اليهود بينما كان معظــم يهــود فرانكفورت يقيمون الصلاة ، وبعد أن اســتمتعوا بليــلة من النهب والتدمير ، أجبروا ١٫٣٨٠ يهوديا على مبارحة المدينة دون أن يحملوا من المتاع الا ما على أجسادهم من ثياب . وأطعمت عدة أسر مسيحية اللاجئين وآوتهم ، وألزم رئيس أساقفة مينز بلدية فرانكفورت بردهم لبيوتهــم ، وتعويضهم عن خسائرهم ، وشنق زعيم الغوغاء (٣٧) . وبعد سنة قامت حركة مماثلة فى فورمز ، فطردت اليهود من المدينة وانتهكت حرمــة مجامعهم ومدافنهم ، ولــكن رئيس أســاقفة فورمــز وأمير هسي ـ دارمشتات قدما الملجأ للمنفيين ، وبسط عليهم ناخب بالاتين حمايته فى رجوعهم . ويمكن القول عموما ان كبار الاكليروس وأفراد الطبقــات العليا كانوا ميالين للتسامح ، ولكن صغار الاكليروس وجماهير الشعب كان من السهل اثارتهم واشعال نار الحقد فى نفوسهم . وكانت القيود القديمة ـ حتى بعد تخفيفها ـ مصــلتة أبدا فــوق رءوس اليهــود ، واحتمالات الاهانة والأذى ماثلة فى أى يوم . وكان بعض المسيحيين الغيورين يخطفون الاطفال من فوق صدور أمهاتهــم ويعمــدونهم بالاكراه (٣٨) . حقا لولا الجهل لما كان للتاريخ وجود .

وتركت حرب الثلاثين يهود ألمانيا فى سلامة نسبية . فقد استغرق البروتستنت والكاثوليك فى قتل بعضهم البعض استغراقا كاد ينسيهم أن يقتلوا اليهود ، حتى ولو كانوا أقرضوهم مــالا . وكان الامبراطــور فرديناند الاول قد فرض لوائح ثقيلة على يهود النمسا ، وطردهــم من بوهيميا (١٥٥٩) ، ولكن فرديناند الثانى حماهم ، وسمح لهم بأن

جينوا مجمعا فى فيينا الكاثوليكية وأن يخلعوا شعاراتهم ، وأباح رجوع اليهود الى بوهيميا . وتعهد يهود بوهيميا بدفع أربعين ألف جولدن كل عام اسهاما منهم فى القضية الامبراطورية فى تلك الحـــرب الكبيرة . ورغبة فى تهدئة خواطر المسيحيين الذين تذمروا من سياسة فرديناند الثانى المتسامحة ، أمر (١٦٣٥) بأن يستمع يهود براغ كل أحد للعظات المسيحية ، وفرض الغرامات عقابا للتهرب أو النوم أثناء العظات .

واتسعت المستوطنات العبرية فى ألمانيا بسرعة بعد صلح وستفاليا. فقد سوأت فظائع الحرب الى حد ما سمعة التعصب والاضطهاد . وأقبل مئات اليهود من بولنده بعد المذابح المنظمة التى تلت ثورة القوزاق التى نشبت فى ١٦٤٨ . وفيمـــا بين عامى ١٦٧٥ و ١٧٢٠ كان يختلف الى أسواق ليبزج من التجار اليهود كل سنة ٦٤٨ تاجرا فى المتوســـط . واستعان الامراء الالمان بالمهارة اليهودية فى ادارة مالياتهم وتنظيـــم تموين جيوشهم وقصورهم . مثال ذلك أن صموئل أو بنهايمر أشرف على المالية الامبراطورية خلال الحملات التى اختتم بها القرن السابع عشر ، وأشرف سمسون فرتايمر على القوميسارية الامبراطورية فى حرب الوراثة الاسبانية . وكان من أثر نفوذ الامبراطورة مارجريت تريزا ، الاســـبانية المولد اليسوعية الروح ، على زوجها ليوبولد الاول أنه أمر بنفى اليهود من النمسا ، ولكن الناخب الأكبر فردريك وليم رحب بكثير من المنفيين فى براندنبورج ، ونمت الجالية اليهودية فى برلين حتى غدت من أكبر الجاليات فى أوربا .

ومنذ القرن الثانى عشر كان يهود وسط أوربا يطورون لهجتهـم « اليبدية Yiddish » المؤلف معظمها من ألفاظ ألمانية مع اضافات عبرية وسلافية ، والمكتوبة بأحرف عبرية . وواصل اليهود المتعلمون دراسـة العبرية ، ولكن المطبوعات العلمانية التى نشرها الأشكنازيم أصـــبح معظمها باليبدية . وظهر أدب ييدى ، غنى بالفكاهة المرة والعاطفـة البيتية ، فى قصص شعبية منقولة عبر القرون والحدود ، وفى تمثيليات قصيرة Purimspiele لمهرجان الربيع المرح ، وفى أمثال من الحكمة البسيطة (كقولهم « أب واحد يعول عشرة أبناء ، ولكن عشرة أبنـاء لا يعولون أبا واحدا » (٣٩)). وقبل ١٧١٥ لم يكن فى استطاعة هذا الادب أن يفاخر الا بمؤلف مرموق واحد ، هو أيليا بوشر ، وهو عالم

فى العبرية وشاعر بالييدية ، كتب رومانسيات غريبة فى مقطوعات ثمانية من الشعر ottava rima وترجم المزامير الى لغة الشعب . وظهرت ترجمة ييدية للاسفار الموسوية الخمسة فى ١٥٤٤ ، بعد خمسة عشر عاما فقط من ترجمة لوثر الالمانية للكتاب المقدس ، ونشرت ترجمة ييدية للعهد القديم كله بأمستردام فى ١٦٧٦ - ٧٩ . لقد كان اليهود الألمان فى طريقهم الى زعامة شعبهم الثقافية .

وفى القرن العاشر دخل اليهود بولنده من المانيا وزكوا وتكاثروا تحت حماية الحكومة رغم المذابح العارضة . وفى ١٥٠١ كان هنا نحو خمسين ألف يهودى فى بولنده ، وفى ١٦٤٨ نصف مليون (٤٠) ، وناصر الاعيان szlachta الذين يهيمنون على مجلس الأمة اليهود ، لأن الملاك تبينوا فيهم كفاية خاصة فى جمع الايجارات وجباية الضرائب وادارة الضياع ، وكان حكام بولنده فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، فيما عدا قلة منهم ، من أكثر ملوك زمانهم تسامحا . فأصدر ستيفن باتورى مرسومين يؤكدان الحقوق التجارية لليهود ، ويدمغان تهم القتل الطقسي التى يرمى بها اليهود بأنها « افتراءات » قاسية لا يسمح بها فى المحاكم البولندية (١٥٧٦) (٤١) . ولكن عداء الشعب لليهود لم يخف . فلم ينقض عام واحد على هذين المرسومين حتى هاجم جمع من الغوغاء الحى اليهودى فى بوزنان ، ونهبوا البيوت ، وقتلوا كثيرا من اليهود . وفرض باتورى غرامة على موظفى المدينة لفشلهم فى وقف الشغب . وواصل سجسمند الثالث سياسة التسامح الملكى .

وتضافر عاملان لانهاء هذا العهد الذى توافرت فيه حسن نية الحكومة قبل اليهود . أولهما أن التجار الألمان فى بولندة كرهوا منافسة اليهود لهم ، فأشعلوا ثورات شعبية فى بوزنان وفيلنو ، حيث هدم مجمع لليهود ونهبت بيوت اليهود (١٥٩٢) ، وقدموا للملك ملتمسا de non tolerandis Judaeis بعدم التسامح مع اليهود (١٦١٩). وانضم الى الحملة لوقف التسامح اليسوعيون الذين استقدمهم باتورى وما لبثوا أن تولوا القيادة الفكرية للكاثوليك فى بولنده . وظفرت اتهامات اليهود بالقتل الطقسي باعتراف الحكومة بها الآن . ففى ١٥٩٨ عثر فى لوبلن على جثة صبى فى مستنقع ، فأكره ثلاثة يهود بالتعذيب على الاعتراف بأنهم قتلوه ، ثم شنقوا وانتزعت أحشاؤهم وقطعوا

أرباعا ، وأصبح جثمان الصبى الذى حفظ فى كنيسة كاثوليكية محل الاجلال الدينى • وازدادت المؤلفات المعادية للسامية ضراوة عن ذى قبل •

وفى ١٦١٨ نشر سبستيان ميشنسكى الكراكاوى كتيبا اسمه « من للتاج البولندى » اتهم فيه اليهود بقتل الاطفال ، والسحر ، والسرقة ، والنصب ، والخيانة ، ودعا مجلس الامة لطرد جميع اليهود من بولندة• وأثار الكتيب الشعور العام اثارة حملت سجسموند على مصادرته • واتهم طبيب من بولندى الأطباء اليهود بتسميم الكاثوليك بشكل منظم (١٦٢٣) وأمر الملك لاديسلاس الرابع السلطات البلدية بأن تحمى اليهود من الثورات الشعبية ، وحاول التخفيف من عداء المسيحيين لهم بمنع اليهود من السكنى فى الاحياء المسيحية ، أو بناء مجامع جديدة ، أو فتح مدافن جديدة ، دون ترخيص ملكى • وألزم برلمان ١٦٤٣ جميع التجار بألا تتجاوز أرباحهم ٧ ٪ ان كانوا مسيحيين ، و٣ ٪ ان كانوا يهودا ، وكانت النتيجة أن المسيحيين أقبلوا على الشراء من اليهود فأثروا وأثاروا مزيدا من الحقد •

وتكاثر اليهود البولنديون برغم الكراهية والقيود والشدائد والفقر وبنوا المعابد والمدارس ، وتناقلوا تقاليدهم وأخلاقهم ونواميسهم التى أعانتهم على الاستقرار ، وصانوا ايمانهم المعزى • ونظم المدارس الأولية معلمون خصوصيون ينقدهم الآباء أجورهم بواقع التلميذ والفترة ، أما التلاميذ العاجزون عن الدفع فان معظم الجاليات اليهودية أنفقت على مدرسة خاصة بهم من الاموال العامة • وكان حضور المدرسة الأولية الزاميا على الصبية من السادسة الى الثالثة عشرة • ووفر التعليم العالى فى كلية (يشيبا) يشرف عليها الأحبار • وفيما يلى وصف للنظام بقلم حبر معاصر (١٦٥٣) :

« كانت كل جالية يهودية تعول طلاب الكلية (الباهور) وتمنحهم قدرا من المال كل أسبوع ••• ويكلف كل طالب من هؤلاء الباهور بتعليم صبيين على الأقل ••• فالجالية ذات الخمسين أسرة يهودية تعول ما لا يقل عن ثلاثين من هؤلاء الشباب والصبيان ، فتوفر الأسرة الواحدة الطعام لطالب كلية وتلميذيه ، ويجلس الطالب الى مائدة الأسرة كواحد

من أبنائها ... وندر أن وجد بيت ... لم تدرس فيه التوراه ، أو لم يكن رب البيت ، أو ابنه ، أو صهره ، أو طالب الكلية الذى يتناول الطعام على مائدته ، خبيرا فى الثقافة اليهودية (٤٢) » .

ونحن اذا نظرنا الى تعليم اليهود البولنديون وأدبهم من وجهة نظرنا الحديثة والعلمانية ، وجدناهما ربانيين بشكل ضيق ، لانهما يكادان يقتصران على التلمود ، والتوراة ، والقبلانية ، والعبرية ، ولكن لما كان التلمود مشتملا على الشريعة اليهودية اشتماله على الدين والتاريخ اليهوديين ، فقد صلح أداة لضبط الذهن ضبطا صارما متعمقا . وما من ريب فى أن الجاليات المطاردة شعرت بانه لا يولد فيهم القوة على احتمال التعيير والاضطهاد والشدائد والمخاطر المتصلة غير الايمان الدينى الحار ، والدراسة التى تمد جذورها فى تقاليد الشعب اليهودى وعاداته . وقد ظل اليهود البولنديون يعيشون كأنهم فى العصور الوسطى حتى أصبحت الحداثة حديثة بقدر يكفى لاعطائهم الحرية — أو الموت .

وجاءهم عام ١٦٤٨ بتذكير رهيب لهم بوضعهم القلق فى العالم المسيحى . ذلك أن الثورة التى تفجرت آنذاك بين القوزاق ضد ملاكهم البولنديين و اللتوانيين وقعت وطأتها على كاهل اليهود الذين كانوا يعملون وكلاء للضياع أو جباة للضرائب . فذبح الآلاف منهم فى بيريياسلاف ، وبيرياتين ، ولوبنى ، وغيرها من المدن ، سواء كانوا يخدمون النبلاء أو لا يخدمونهم . واحتفظ بعضهم بحياتهم اما باعتناقهم مذهب الروم الارثوذكس ، واما بالالتجاء الى التتار الذين باعوهم عبيدا . وقد اشتط غيظ القوزاق المكبوت فاتسم بشراسة لا تصدق . يقول مؤرخ روسي :

« كان القتل مصحوبا بضروب من التعذيب الهمجى : فكان الضحايا تسلخ جلودهم أحياء ، أو يمزقون اربا ، أو يضربون بالهراوات حتى يموتوا ، و يشوون على الجمر ، أو يحرقون بالماء المغلى ... على أن أبشع ألوان القسوة أصاب اليهود . فقد حكم عليهم بالأبادة الكاملة ، وكانت أقل علامة على الرأفة بهم تعتبر خيانة . وانتزع القوزاق لفافات الشريعة من المجامع وراحوا يرقصون عليها وهم

يشربون الوسكى • ثم طرحوا عليها اليهود وذبحوهم بغير رحمة • وألقى آلاف الأطفال اليهود فى الآبار أو أحرقوا أحياء (٤٣) » •

وروى أن ٦٫٠٠٠ يهودى هلكوا فى هذه الثورة فى مدينة واحدة هى نيميروف • وفى تولشيمن حوصر ١٫٥٠٠ يهودى فى حديقة عامة وخيروا بين اعتناق المسيحية أو الموت ، واذا جاز لنا أن نصدق المؤرخ الأخبارى اليهودى فان ١٫٥٠٠ اختاروا الموت • وقيل ان ١٠٫٠٠٠ (؟) يهودى فى مدينة بولونوى قتلهم القوزاق أو أسرهم التتار • ونشبت فى مدن أوكرانية أخرى مذابح منظمة أقل شأنا • ولما تحالف القوزاق مع روسيا بعد أن تصدى لهم الجيش البولندى (١٦٥٤) ، انضم الجنود المسكوفيون الى القوزاق فى قتل أو طرد يهود موجيليف ، وفيتيبسك ، وفيلنو ، وغيرها من المدن التى انتزعت من اللتوانيين أو البولنديين •

وفى ١٦٥٥ خلق غزو شارل العاشر ملك السويد لبولنده مشكلة أخرى لليهود • ذلك أنهم ككثيرين من البولنديين قبلوا الفاتح السويدى دون مقاومة ، منقذا لهم من الروس المرهوبين • فلما قام جيش بولندى جديد وطرد السويديين ، ذبح اليهود فى جميع أرجاء ولايات بوزنان ، وكاليش ، وكراكاو ، وبيوتركوف ، فيما عدا مدينة بوزنان ذاتها • وعلى الجملة كانت هذه الكوارث التى منى بها اليهود من ١٦٨٤ الى ١٦٥٨ فى بولنده ولتوانياوروسيا ، حتى عصرنا الحاضر ، أدمى الكوارث فى تاريخ اليهود الأوربيين ، ففاقت فى هولها وضحاياها مذابح الحروب الصليبية ، والموت الاسود • وقد حسب تقدير متحفظ أن ٣٤٫٧١٩ يهوديا ماتوا ، و ٥٣١ جالية يهودية أبيدت (٤٤) • هذا العقد الفاجع هو الذى بدأ هجرة اليهود الجماعية من الاراضي السلافية الى أوربا الغربية وأمريكا الشمالية ، مما أسفر عن توزيع جديد كامل للسكان اليهود على سطح الارض •

وفى بولنده عاد من بقى من اليهود على قيد الحياة الى بيوتهم وأعادوا فى صبر بناء جالياتهم التى دمرت • وأعلن الملك يوحنا كازيمير عن عزمه على تعويض رعاياه اليهود قدر استطاعته عن النكبات التى تحملوها ، فمنحهم مراسيم جديدة بالحقوق والحماية ، واعفاء مؤقتا من الضرائب فى تلك المراكز التى اشتد كربها • ولكن العداء الشعبى

واللاهوتى ظل قائما ، تخفف منه المواساة المسيحية بين الحين والحين. ففى ١٦٦٠ أعدم حبران بالتهمة القديمة التى طالما استنكرها البابوات، وهى تهمة القتل الطقسي ، وفى ١٦٦٣ لقى صيدلى يهودى فى كركاو الموت بتهمة لم تثبت عليه ، وهى أنه كتب هجاء يندد فيه بعبادة مريم العذراء ، وكان موته بالترتيب الهمجى الذى قضت به المحكمة : فبترت شفتاه ، وأحرقت يده ، وقطع لسانه ، وأحرق جسده على الخازوق(٤٥) . وارسل قائد الطريقة الدومنيكية من روما (٩ فبراير ١٦٦٤) رسالة يحض فيها الرهبان الدومنيكان فى كركاو « على الدفاع عن اليهود التعساء ضد كل فرية تفترى عليهم (٤٦) » . وفى لفوف غزا تلاميذ أكاديمية يسوعية حى اليهود ، وقتلوا مائة منهم ، وهدموا البيوت ، وانتهكوا حرمة المجامع (١٦٦٤) ، ولكن الطلبة اليسوعيين فى فيلنو حموا اليهود من الغوغاء محدثى الشغب (١٦٨٢) (٤٧) . وحاول سوبيسكى السمح الكريم (١٦٧٤ – ٩٦) جاهدا أن يطيب خاطر يهود بولنده ، فأكد من جديد حقوقهم المنتهكة ، وحررهم من قضاء السلطات البلدية الخاضعة لعواطف الجماهير ، واستمع فى تعاطف الى المندوبين الذين قدموا التماسات اليهود الى بلاطه . فما اختتم حكمه حتى كان اليهود البولنديون قد أفاقوا ، عدديا ، من ذلك العقد القاسي ، ولكن أهواله ظلت عالقة أجيالا بذاكرة اليهود .

لم يكن فى روسيا ، قانونا ، يهود قبل ١٧٧٢ . وقد أبدى ايفان الرهيب رأيه فيهم فى جوابه على طلب رجاه فيه سجسموند الثانى أن يسمح لليهود اللتوانيين بدخول روسيا للمتاجرة (١٥٥٠) :

« ليس من المناسب السماح لليهود بالمجىء الى روسيا بسلعهم لأن شرورا كثيرة تنجم عنهم . ذلك أنهم يدخلون الاعشاب السامة الى مملكتنا ، ويفتنون الروس عن المسيحية . اذن ينبغى له (أى الملك) الا يعيد الكتابة عن هؤلاء اليهود (٤٨) » .

ولما احتل الجيش الروسي مدينة الحدود البولندية بولوتسك (١٥٦٥) ، أرسل ايفان أوامره بتحويل اليهود المحليين الى المسيحية ، أو اغراقهم . وحين نشبت الحرب بين روسيا وبولنده فى ١٦٥٤ أدهش الروس أن يجدوا مدنا كثيرة فى لتوانيا وأوكرانيا بها

أقسام كاملة آهلة باليهود . فقتلوا بعض هؤلاء « المهرطقين الخطرين »، وأخذوا بعضهم أسرى الى موسكو ، حيث أصبحوا نواة لمستوطنة يهودية صغيرة غير شرعية . وفى ١٦٩٨ تلقى بطرس الأكبر وهو فى هولنده عن طريق عمدة أمستردام ، ملتمسا مقدما من بعض اليهود يرجـــونه فيه السماح لهم بدخول روسيا ، وكان جوابه :

« عزيزى ويتسن ، انك تعرف اليهـود ، وتعـــرف أخلاقهـــم وعاداتهم ، وكذلك تعرف الروس . وأنا أعرف الاثنين ، وصدقنى أن الوقت لم يحن للجمع بين القوميتين . فقل لليهود انى شـــاكر لهـم اقتراحهم ، واننى مدرك كم ستفيدنى خدماتهم ، ولكنى مشفق عليهم ان يعيشوا بين ظهرانى الروس (٤٩) » .

وظلت هذه السياسة الروسية ، سياسة ابعاد اليهود ، معمولا بها حتى الملتمس البولندى الأول (١٧٧٢) .

٥ ـ الهامـات الايمـــان

لابد لكى نفهم عداء المسيحيين لليهود أن ننفذ الى ذهن كاثوليك العصور الوسطى وبروتستنت حركة الاصلاح الدينى . لقد تذكروا صلب المسيح ، ولكنهم لم يتذكروا جموع اليهود العريضة التى استمعت فى فرح الى المسيح ورحبت به فى دخوله أورشليم . وآمنوا بيســـوع ذلك « الممسوح » ، ابن الله ، ولكن اليهود لم يستطيعوا أن يروا فى المسيح ذلك المسيا الذى وعدهم به أنبياؤهم ، والمخلص الذى سيحررهم من رقهم ويجعلهم من جديد شعبا حرا مرفوع الرأس . وكان عسيرا على المسيحيين ان ينظروا نظرة التسامح الأخوى الى قلة لم تكن وحدانيتهم منافسا بعيدا كوحدانية الاسلام ، بل صرخة حارة ، تسمع من مجامع تتكاثر فى قلب العالم المسيحى ـ « أصغ يا اسرائيل ! الرب الهنـــا واحد ! » وشعر المسيحيون أن العقيدة السامية المتكبرة هى تحد ماثل أبدا للايمان المسيحى الاساسي ، الايمان بأن ابن الانســـان الذى مات على الصليب هو فى كل الحق ابن الله ، الذى كفرت ذبيحته غير المحدودة عن خطايا الانسان ، وفتحت له أبواب الفردوس . أيمكن أن يكون فى الحياة شيء أثمن وأعظم تشديدا للنفوس من ذلك الايمان ؟

ولكى يحمى مسيحيو أوربا ذلك الايمان حاولوا عزل اليهود بالحواجز الجغرافية ، والقيود السياسية ، والرقابة الفكرية ، والاغلال الاقتصادية . فلم يسمح لهم بالمواطنة الكاملة وبحقوقها فى أى بلد فى أوربا المسيحية قبل الثورة الفرنسية ـ ولا حتى فى أمستردام . وحيل بينهم وبين الوظائف العامة ، والجيش ، والمدارس والجامعات ، والاشتغال بالقانون فى المحاكم المسيحية . وفرضت عليهم الضرائب الباهظة ، وتعرضوا للقروض الاجبارية ، ولمصادرة ثروتهم فى أى وقت . وأبعدوا عن الزراعة بقيود على ملكية الارض ، وبانعدام الأمن الذى ما برح ملازما لهم والذى أكرههم على وضع مدخراتهم فى النقد أو السلع المنقولة . وحرموا من الانضمام للطوائف الحرفية لأنها كانت من بعض الوجوه دينية شكلا وهدفا ، واشترطت اليمين والشعائر المسيحية . واذ قصر نشاطهم على الصناعات الصغيرة ، وعلى التجارة والمالية ، فانهم وجدوا أنفسهم مطاردين حتى فى هذه الاشغال بتحريمات خاصة تتفاوت بتفاوت المكان وتتغير فى أى وقت . ففى اقليم حرم عليهم أن يكونوا باعة متجولين ، وفى آخر أن يتجروا فى دكاكين ، وفى ثالث أن يتعاملوا فى الجلد أو الصوف (٥٠) . ومن ثم عاش أكثر اليهود تجارا صغارا ، و باعة متجولين ، أو تجارا فى البضائع المستعملة أو الثياب القديمة ، او خياطين ، أو خداما لمواطنيهم الأغنياء ، أو صناعا يصنعون السلع لليهود . ومن هذه الاشغال ، ومن ذل العيش فى الغيت ، اكتسب فقراء اليهود عاداتهم تلك فى الملبس والحديث ، وحيل التجارة وخصائص الذهن التى مجتها الشعوب الأخرى والطبقات العليا من الناس .

ومن فوق هذه الكثرة المتواضعة كان الاحبار ، والاطباء ، والتجار ، والماليون . وقد لعب نشاط المصدرين والمستوردين اليهود دورا هاما فى ثراء هامبورج وأمستردام . وكان جزء على اثنى عشر من تجارة انجلترة الخارجية يمر بأيدى اليهود فى النصف الأول من القرن السابع عشر (٥١) . وغلب العنصر اليهودى فى استيراد الجواهر والمنسوجات من الشرق . وانتفع اليهود فى التجارة الدولية من علاقاتهم الأسرية فى مختلف الدول ، ومن اجادتهم للغات ، وكان لهم مسالكهم التى تصلهم منها المعلومات ، فهدتهم بين الحين والحين الى توقعات

نافعة فى السوق المالية (٥٢) . ومكنتهم هذه الاتصالات الأجنبية من تطوير خطابات الاعتماد والكمبيالات . ولم يكن اليهود بالطبع مخترعى الرأسمالية الحديثة ، فقد رأينا ذلك النظام ينمو مستقلا تمام الاستقلال عنهم ، وفى الصناعة أكثر منه فى المالية ، وكان دورهم حتى فى المالية صغيرا اذا قورن بدور آل مديتشي الفلورنسيين ، أو آل جريماليرى الجنويين ، أو آل فوجير الأوجزبورجيين . وكان مقرضو المال اليهود يتقاضون فوائد عالية ، ولكنها لم تكن أعلى مما يتقاضاه المصرفيون المسيحيون الذين يواجهون أخطارا معادلة .

واكتسب الذهن اليهودى ، الذى شحذته الشدائد والظلم والدراسة ، فى التجارة والمالية مقدرة مرهفة على الكسب لم يغتفرها لليهود منافسوهم قط . ولم تر أخلاقيات اليهود فى الثروة أى عيب أو وصمة عار ، شأنها فى ذلك شأن أخلاقيات البيورتان . ورأى فيها الاحبار دعامة البر ، وعصب المجمع ، والملجأ الأخير اذا أريد الخلاص من أذى الملوك او الجماهير المضطهدة . ومع ذلك فصحيح أنه وجد فى الجاليات اليهودية فى هولنده وألمانيا وبولنده وتركيا رجال جعلوا جمع المال مسرة نفوسهم لا مجرد أداة لحماية شعبهم ، واستعملوا فى جمعه الحيلة أكثر مما استعملوا الضمير ، وأظهروا بنى جلدتهم بذلك المظهر المزعج مظهر الثراء العريض يلوثه الترف الواضح ، ولا تكفر عنه أعمال البر الكبيرة الا جزئيا . ومن حولهم فى الغيت كان ثلث اخوانهم يعيشون فى فقر ، لا يحول دون تضورهم جوعا غير الصدقات (٥٤) .

ولقد عانى دين اليهود كما عانت أخلاقهم من فقر الحياة فى الغيت وانطوائها وهوانها . فالأحبار الذين كانوا فى العصور الوسطى رجالا ذوى شجاعة وحكمة ، أصبحوا فى هذا العصر أتباع صوفية تهرب من جحيم الاضطهاد والفاقة الى جنة الاحلام التعويضية . وقد حل التلمود فى العصور الوسطى محل التوراة روحا لليهودية ، اما الآن فقد حلت القبلانية محل التلمود . وزعم مؤلف فرانكفورتى من كتاب القرن السابع عشر أنه كان فى أيامه أحبار كثيرون لم يروا توراة قط (٥٥) . وكان سليمان لوريا (١٥١٠ – ٧٢) علامة عينت هذا الانتقال ، فقد بدأ بالتلمود ، وبنى عليه كتابه « يم شيل شلومو » (بحر سليمان) ، ولكن حتى ذهنه المرهف استسلم آخر الامر للقبلانية ، فقد كانت

« التقليد السرى » لمتصوفة اليهود فى العصر الوسيط ، الذين اعتقدوا أنهم وجدوا وحيا الهيا مستترا فى رمـزية الاعـداد ، والحـروف ، والألفاظ ، لا سيما فى الحروف التى يتألف منها اسم يهوه الذى لا ينطق به • وكان العالم تلو العالم فى الغيت يضل فى هذه الأوهـام ، حتى لقد صرح أحدهم بأن من يهمل حكمـة القبلانيـة السرية يسـتحق الحرم(٥٦) • يقول أكبر المؤرخين اليهود المحدثين انه فى القـرنين السادس عشر والسابع عشر « خنقت القبلانية الطفيلية حياة اليهـود الدينية بجملتها • وكل الاحبار وقادة الجاليات اليهودية تقريبـا ••• وقعوا فى شراكها » من أمستردام الى بولنده الى فلسطين (٥٧) •

وكان سند الحياة فى نظر اليهود المشتتين على هذا النحـو ، والذين كثيرا ما كانوا معدمين مفترى عليهم ، هو الايمان بأنه فى يوم قريب سيأتى المسيا الحقيقى لينتشلهم من وهدة تعاستهم وعارهم ويرفعهم الى مكان القوة والمجد • ومن المؤسف أن نرى كيـف كان دجـال أو متعصب يظهر القرن بعد القرن فيقبله اليهود على أنه هذا المخلص الذى طال ارتقابهم له • ولقد رأينا فى موضع سابق من هذا الكتاب كيف أن داود روبينى العربى هلل له عبرانيو البحر المتوسط فى ١٥٢٤ على أنه المسيا ، مع أنه هو نفسه لم يدع هذا • وها هو ذا يهودى من أزمير يدعى سبتاى زيفى ، يظهر عام ١٦٤٨ ويزعم أنه الفادى الموعود •

لقد بدا هذا المختار ، من الناحية الجسمية ، اختيارا جـديرا بالاعجاب • فهو رجل طويل القامة ، حسن التكوين ، مليح الوجه ، له شعر الشاب الصفاردى ولحيته السوداوان (٥٨) « اجتذبته كتـابات سليمان لوريا الى القبلانية ، فأخضع ذاته لنظام صارم من النسك أمـلا فى أن يصبح بهذا جديرا بالتقليد السرى » فى أكمـل اعلانه • فأذل جسده ، وأكثر من الاستحمام فى البحر فى جميع الفصـول ، وغالى فى الاحتفاظ بنظافته حتى لقد احتفل اتباعه برائحة لحمه الزكية • ولم يشعر بميل للنساء ، وقد تزوج فى شبابه الباكر امتثالا للعرف اليهودى، ولكن زوجته ما لبثت أن طلقته لفشله فى أداء واجباته الزوجية • ثم تزوج ثانية ، بنفس النتيجة • والتف الشبان من حـوله ، معجبين بصوته الرخيم وهو يرتل التراتيل القبلانية ، متسائلين أليس هذا قديسا مبعوثا من السماء • وكان أبوه أحد جماعة آمنت بقرب مجىء المسيا ـ

وبأن ذلك لن يتجاوز سنة ١٦٦٦ . وسمعهم سبتاى يتنبأون بأن الفداء العظيم سيأتى على يد رجل طاهر النفس شديد الورع ، ملم بأسرار القبلانية ، قادر على جمع شمل كل الابرار ليعيشوا فى عصر السلام الموعود . وخيل اليه ، بعد أن طهره الزهد ، أنه الفادى الالهى . وكان « الظهر » ، وهو نص فى القبلانية يرجع الى القرن الثالث عشر ، قد حدد السنة اليهودية ٥٤٠٨ (١٦٤٨ الميلادية) فاتحه لعصر الفداء . فى تلك السنة أعلن سبتاى أنه المسيا ، وكان آنئذ فى الثانية والعشرين .

وصدقه رهط من مريديه . فأدانتهم حاخامية أزمير باعتبارهم مجدفين ، ولكنهم أصروا ، فنفوا من المدينة . وانتقل سبتاى الى سالونيك ، وهناك أقام احتفالا قبلانيا زوج فيه نفسه للتوراة ، فطرده أحبار سالونيك ، فمضي الى أثينا ، ثم الى القاهرة ، حيث ضم اليه تابعا غنيا يدعى رفائيل شلبى ، ثم انتقل الى أورشليم ، وهناك وقع زهده موقعا طيبا حتى فى نفوس الاحبار . وأوفدت الجالية اليهودية فى أورشليم سبتاى ليلتمس المعونة فى القاهرة بعد أن أفقرها انقطاع الصدقات من يهود أوكرانيا المنكوبين . فعاد الى أورشليم مصحوبا لا بالمال بل بزوجة ثالثة تدعى ساره ، أضفى حسنها الاشراق على دعاواه وفى غزة - التى مر بها فى طريقه - انضم اليه تابع غنى آخر يسمى ناتان غزاتى ، أذاع أنه هو ذاته ايليا ، ولد من جديد ليقوم الطريق أمام المسيا ، وأنه لن ينقضي عام حتى يسقط المسيا السلطان العثمانى ويقيم ملكوت السماوات . وصدقه آلاف اليهود ، وأذلوا أجسادهم ليكفروا عن ذنوبهم ويصبحوا جديرين بالفردوس الأرضي . فلما عاد سبتاى الى أزمير ، دخل عام ١٦٦٥ المجمع فى رأس السنة اليهودية ، وأعلن نفسه المسيا مرة أخرى . وقبله هذه المرة جمع غفير أخذته نشوة الفرح . فلما رماه حبر عجوز بأنه دجال نفاه سبتاى من أزمير .

وانتشر نبأ مجىء المسيا فى أرجاء غربى آسيا فكهرب الجاليات اليهودية . وحمل البشرى تجار مصر وأيطاليا ، وهولنده ، وألمانيا ، وبولنده ، الى بلادهم ، وخبروا بالمعجزات التى نسبت الى سبتاى فى عدد متزايد . وتشكك بعض اليهود ، ولكن الآلاف صدقوا بعد أن أعدتهم لذلك النبوءات القبلانية والآمال الحارة . لا بل ان بعض المسيحيين

شاركوهم الابتهاج ، وقالوا ان مسيا ازمير هو حقا المسيح المولود من جديد . ذكر هنرى أولدنبرج فى رسالة من لندن الى سبينوزا (ديسمبر ١٦٥٥) أن « كل العالم هنا يتحدث عن شائعة عودة الاسرائيليين المشتتين منذ أكثر من الفى عام الى وطنهم . وقليلون يصدقون الخبر ، وكثيرون يتمنونه ... فاذا تأكد ، فربما أحدث ثورة فى كل شيء (٥٩) » . وفى أمستردام أعلن أحبار بارزون ايمانهم بسبتاى ، واحتفل فى المجمع بمجيء الملكوت بالموسيقى والرقص ، وطبعت كتب الصلوت لتعلم المؤمنين ضروب التكفير والتراتيل الممهدة لدخول أرض الميعاد . ففى مجمع هامبورج راح العائدون اليهود من جميع الأعمار يثبون ويطفرون ويرقصون وفى أيديهم درج الناموس . وفى بولنده هجر يهود كثيرون بيوتهم وأملاكهم ورفضوا أن يشتغلوا قائلين ان المسيا آت بشخصه سريعا وسيقودهم فى موكب النصر الى أورشليم(٦٠). واتخذ آلاف اليهود أهبتهم للرحيل الى فلسطين – كان منهم أحيانا جاليات بأكملها ، كجالية أفنيون . واقترح بعض المتحمسين فى أزمير، الذين أثار عواطفهم ذلك الولاء العالمى لزعيمهم ، أن توجه الصلوات اليهودية منذ الآن ، لا الى يهوه ، بل الى « ابن الله البكر ، سبتاى زيفى ، المسيا والفادى » (وكذلك كان المسيحيون يصلون للمسيح أو العذراء أكثر مما يصلون لله) . وأرسل أمر من أزمير بأن يحتفل منذ الآن بأيام الحداد المقدسة عند اليهود أعيادا للفرح ، وبأن كل فروض الناموس المضنية ستبطل سريعا فى أمن الملكوت وسعادته .

ويلوح أن سبتاى ذاته انتهى الى الايمان بقواه المعجزة . فاعلن أنه ماض الى الآستانة ، ولعل هدفه كان تحقيق نبوءة غزانى بأن المسيا سيأخذ فى هدوء تاج الدولة العثمانية (بما فيها فلسطين) من السلطان. (على أن بعضهم زعم أن القاضي التركى فى أزمير أمره بالمثول بين أيدى كبار موظفى الدولة فى العاصمة) . وقبل أن يبرح سبتاى أزمير قسم العالم وحكومته بين أخلص معاونيه . ثم انطلق الى الاستانة فى أول يناير ١٦٦٦ وبرفقته نفر من مريديه . وكان قد تنبأ بتاريخ وصوله ، ولكن عاصفة عطلت سفينته . وقلب رفاقه خطأه الحسابى هذا الى برهان جديد على الوهيته ، وقالوا انه أسكت العاصفة بكلمة الهية منه .

وما ان رسا على ساحل الدردنيل حتى قبض عليه ، وجىء به الى الاستانة مكبلا بالاغلال ، وزج به فى السجن . وبعد شهرين نقل الى سجن أرحم فى أبيدوس . وسمح لزوجته أن تلحق به ، ووفد عليه أصدقاؤه من كل فج ليواسوه ، ويقدموا له الولاء ، ويأتوه بالمال . ولم يفقد أتباعه ايمانهم به ، فزعموا ان أوثق النبوءات تنبأت بأن المسيا سيرفض أولا من رؤساء هذا العالم ، الذين سيوقعون به ألوانا من العذاب والهوان . وتوقع اليهود فى كل أرجاء أوربا الافراج عنه فى أى لحظة ، وأنه سيحقق نبوءات أسعد . وعلق حرفا اسمه الاولان ، س ، ز فى المجامع . وفي أمستردام ، ولجهورن ، وهامبورج ، كادت أعمال اليهود التجارية تتعطل تماما ، فقد اشتد ايمان اليهود هناك بأنهم عائدون جميعا عما قريب الى الارض المقدسة . وتعرض من أعرب من اليهود عن شكوكهم فى أن سبتاى هو المسيا لخطر الموت كل يوم .

وحير السلطات التركية ذلك الهياج الذى اضطربت له الحياة الاقتصادية لكثير من المجتمعات العثمانية ، ولكن الترك خشوا أنهم لو أعدموا سبتاى بوصفه ثائرا ودجالا لعملوا بذلك على تقديسه شهيدا ، ولحولوا حركته الى تمرد يكلفهم ثمنا غاليا ، لذلك قرروا أن يجربوا حلا سلميا . فأخذ سبتاى الى أدرنه . وهناك أخبر بأن أمرا قضي بأن يسحل فى الشوارع ويعذب بالمشاعل الموقدة ، ولكن فى استطاعته أن يتفادى هذه النهاية وأن يظفر بأسباب التكريم الكبير فى الاسلام لو اعتنق دين محمد (صلى الله عليه وسلم) ، فقبل ، وفى ١٤ سبتمبر مثل أمام السلطان ، وأكد مروقه عن دينه بخلع ملابسه اليهودية وارتداء الزى التركى . وخلع عليه السلطان اسم محمد أفندى ، وعينه حاجبا لبابه براتب كبير . ونالت سارة ، التى اعتنقت الاسلام هى أيضا ، الهدايا الثمينة من السلطانة .

وقوبل نبأ هذا الارتداد بالتكذيب من يهود آسيا وأوربا وأفريقيا ، ولكن حين تأكد النبأ آخر الامر كاد ينفطر له قلب العالم اليهودى . فكاد الحاخام الاكبر فى أزمير يموت خزيا وهو الذى قبل سبتاى بعد تشكك كثير . وأصبح اليهود فى كل مكان أضحوكة المسلمين والمسيحيين . وحاول أعوان سبتاى مواساة أتباعه بأن بينوا لهم أن اعتناقه الاسلام انما هو جزء من خطة ماكرة ليكسب المسلمين الى

صفوف اليهود ، وأنه عما قريب عائد الى الظهور يهـوديا والعـالم الاسلامى كله فى ركابه • وحصل سبتاى على اذن بتبشير يهود أدرنه ، مؤكدا للسلطات التركية أنه سيهدى سامعيه الى الاسلام ، وأصدر فى الوقت نفسه رسائل سرية لليهود قال فيها انه مازال المسيا ، وان عليهم ألا يفقدوا ايمانهم به • ولكن لم يبد على اليهود ، لا فى أدرنه ولا فى أى مكان آخر ، أى علامة على قبولهم الاسلام • فلما خاب أمل الحكومة العثمانية رحلت سبتاى الى أولسينج فى ألبانيا ، حيث لا يوجد يهود • وهناك مات المسيا المحطم فى ١٦٧٦ • وظل المؤمنون به نصـف قرن يواصلون حركته ، ويؤكدون قداسـته ، ويعـدون بقيامتـه من بين الاموات •

٦ ـ المهرطقـون

كان الاحبار عليمين بان الدين فى المجتمعات اليهـودية التى يطوقها أعداء عتاة هو دعامة الحياة ، وحياة الشريعة ، لذلك زهدوا اليهود فى الدراسة العلمانية التى قد تفتح ثغرة للتشكك فى الدين • من ذلك أن يوئيل سركيس ، الحاخام االكبر فى كركاو ، أدان الفلسفة لأنها أم الهرطقة ، و « العاهرة » المهلكة التى قال فيها سليمان « كل من دخل اليها لا يؤوب (٦١) » ورأى حرم أى يهودى فى قضائه يدمـن الفلسفة • وفزع يوسف سليمان ديلميديجو لخلو منهاج الدراسة والقراءة عند اليهود من العلوم ، وكان قد وفد على بولنده (١٦٢٠) من ايطاليا التى مازالت تجيش بحرارة النهضة ، وكتب يقول « ها هى ذى الظلمة تغشي البلاد والجهلة كثيرون ••• وهم يقولون ان الرب لا يبتهج بالسهام المشحوذة فى أيدى النحاة والشعراء والمناطقة ، ولا بمقاييس الرياضيين ولا بحسابات الفلكيين (٦٢) » •

وكان ديلميديجو هذا حفيدا بعيدا لأيليا ديلميديجو ، الذى كان يعلم العبرية فى أوساط آل مديتشي • وبدأ انحرافاته بتعلم اليونانية كما تعلم التلمود من أبيه ، وكان حاخاما فى كريت ، وحصل على بعض التربية العلمية فى جامعة بادوا التقدمية ، حيث كان جاليليو معلمه المشرف على دراسته ثم امتهن الطب الذى يسر له الرزق وخلع عليـه إسمه الايطالى ، ولكن العلم ـ لا سيما الرياضـة ـ ظل يفتنـه ، وفى

سبيل طلبه نفض عنه بعض ايمانه الدينى ، وتغيير الاهاب القديم على هذا النحو يخلف جلدا حساسا ، وقد يزعزع الخلق حينا . لذلك راح يوسف يتنقل من بلد الى بلد مقتلع الجذور لا يستقر على حال . وانضم مؤقتا وهو فى القاهرة والاستانة الى شيعة القرائين ، وهم يهود رفضوا التقاليد والتنقيحات الكهنوتية (كالبروتستنت) وتمسكوا بالتوراة مصدرا أوحد للاهوتهم . وفى هامبورج وأمستردام وجد معلوماته الطبية أشد تخلفا من معلومات الاطباء اليهود هناك ، حتى لقد تحول فى سبيل الرزق سنيا ، والتحق بالحاخامية ، وأخيرا دافع عن القبلانية ومات طبيبا مغمورا فى براغ (١٦٥٥) .

أما ليو بن اسحاق مودينا فكان انسانا أكثر رهافه وعمقا . اتخذ اسمه الايطالى من المدينة التى هاجرت اليها اسرته عند طرد اليهود من فرنسا . وكان أعجوبة بين الاطفال ، فقرأ الانبياء فى الثالثة ، ووعظ فى العاشرة ، وألف أول كتبه المنشورة فى الثالثة عشرة . والكتاب حوار ضد القمار ، الذى كان ليو حجة فيه ، لأنه ظل وفيا له الى نهاية حياته . وكان أعظم مقامراته زواجه فى ١٥٩٠ وهو فى التاسعة عشرة. أما أبناؤه الثلاثة فقد مات أحدهم فى السادسة والعشرين ، وقتل الثانى فى عراك ، انصرف الثالث الى حياة الفجور ثم اختفى فى البرازيل . وماتت احدى بنتيه وهو حى ، أما الأخرى فبعد أن فقدت زوجها أصبحت عالة على أبيها الذى اصيبت زوجته بالجنون . ووسط هذه الصدمات حرم ليو لتماديه فى لعب الورق . وكتب رسالة تثبت أن الاحبار تجاوزوا الناموس فى قرارهم ، الذى عدلوا عنه سريعا .

وكان أثناء ذلك قد ملك ناصية أدب التوراة والتلمود الربانى ، ودرس الفيزياء والفلسفة ، وكتب بالعبرية والايطالية شعرا لا بأس به . فلما قبلته الحاجامية فى البندقية ، ألقى خطبا ايطالية كان فيها من العلم والبلاغة ما اجتذب كثيرا من المسيحيين الى سماعه . وكلفه أحد أصدقائه المسيحيين ، وكان نبيلا انجليزيا ، بأن يكتب عرضا للشعائر اليهودية . وقد انتهى ليو فى كتابه هذا Historia dei riti ebraici

« تاريخ الشعائر العبرية » (١٦٣٧) الى أن كثيرا من المراسم التقليدية التى بعدت الآن عن هدفها الاصلى قد فقدت الكثير من دلالتها . وفى كتاب غفل من اسم المؤلف « قول صقل » اقترح تنقيح

الصلوات والطقوس العبرية وتبسيطها ، والغاء قوانين الصوم ، وخفض عدد الايام المقدسة والتخفيف من صرامتها . وفى هذا الكتاب انتقد اليهودية الربانية لأنها مجموعة من التعقيدات التى لا مبرر لها أضيفت الى الشريعة اليهودية الأصلية ، وطالب بالرجوع من التلمود الى التوراة ، ولكنه مد هرطقاته الى التوراة ذاتها ، بل الى الوحى الموسوى بأكمله . وقد ترك هذا التصريح الثورى دون نشر ، فلما عثر عليه بين أوراقه بعد وفاته (١٦٤٨) ، كان مصحوبا برسالة مرافقة تدافع عن اليهودية السنية . ولم ير أحد الكتابين النور حتى عام ١٨٥٢ . ولو أن ليو اجترأ على نشر « قول صقل » فى حياته ، لبدأت حركة الاصلاح اليهودية نشاطها فى القرن السابع عشر ، ولكنه كان أشد ذكاء من أن يسبق التاريخ .

أما أشقى المهرطقين اليهود فهو أوريل أكوستا الامستردامى . كان أبوه ينتمى لأسرة من المارانو أقامت فى أوبورتو ولاءمت تماما بين نفسها وبين المذهب الكاثوليكى . وتلقى جابرييل - وهو اسمه فى البرتغال - العلم على يد اليسوعيين الذين روعوه بمواعظهم عن الجحيم، ولكنهم شحذوا ذهنه بالفلسفة الكلامية . فلما درس الكتاب المقدس أثر فيه اعتراف الكنيسة بالعهد القديم كلمة لله ، وقبول المسيح ورسله الاثنى عشر لناموس موسي . وانتهى الى أن اليهودية من الله ، وتشكك فى حق القدس بولس فى سلخ المسيحية عن اليهودية ، وصمم أن يعود الى دين أجداده فى أول فرصة . فأقنع أمه واخوته (وكان أبوه قد مات) بالانضمام اليه فى محاولة للروغان من ديوان التفتيش والهروب من البرتغال . ووصلوا أمستردام بعد أن جازوا مخاطر كثيرة (حوالى ١٦١٧) وهناك غير جابرييل اسمه الى أوريل ، وأصبحت الاسرة أعضاء فى مجمع اليهود البرتغاليين .

بيد أن هذه الروح ذاتها التى حدت به الى ترك الكنيسة ، روح التقصي والتفكير المستقل ، جعلته قلقا لا يحس بالاطمئنان النفسي داخل عقائد المجمع التى لا تقل صرامة عن عقائد الكنيسة ، فقد صدمه ادمان الاحبار ، حتى أحبار أمستردام المثقفين ، لسخافات القبلانية الفكرية، فوبخ شركاءه الجدد بجراة على تلك الطقوس والنظم التى ليس لها اساس ظاهر فى التوراة ، والتى رآها تتعارض أحيانا تمام التعارض

مع طرق التوراة . واذ لم يؤت من الحاسة التاريخية الا القليل ، فقد خيل اليه أنه كان خطأ كبيرا أن تتغير الشعائر والمعتقدات اليهودية على مدى تسعة عشر قرنا . وكما رجع قبل ذلك من العهد الجديد الى القديم ، فكذلك طالب الآن بالرجوع من التلمــود الى التــوراة . وكان قد نشر فى ١٦١٦ بهامبورج نشرة برتغالية عنوانها « حجج ضد التقاليد » التى بنى عليها التلمود . فأرسل نسخة منها الى مجمع اليهــود بالبندقية ، فأعلن المجمع حرمه (١٦١٨) ، وطلب الى ليو مودينا ، وهو ذاته مهرطق ، بحكم منصبه فى الحاخامية ، أن يفند دعوى أكوستا بأن أوامر الاحبار فى كثير من الحالات ليس لها سند من الاسفار المقدسة . وأنذر أحبار أمستردام أكوستا بأنهم هم أيضا سيحرمونه ما لم يعدل عن آرائه ، وكان قد رماهم بالفريسية . فأبى ، وضرب بنظم المجمع عرض الحائط جهارا ، فأعلن حرمه (١٦٢٣) ، وهو حرم يقطع كل صلة له بأخوانه اليهود ، فتجنبه الآن حتى أقرباؤه . ولم يكن قد تعلم الهولندية بعد ، فوجــد نفسه بغير صديق واحد . وراح الاطفال يرجمــونه بالحجــارة فى الشوارع .

وفى مرارة عزلته تقدم (كما تقدم سبينوزا بعده بقــرن) الى هرطقة هاجمت معتقدا أساسيا لكل شخص تقريبا فى أوربا . فجاهر بأنه برفض الايمان بخلود النفس لأنه غريب جدا على العهد القديم ، فالنفس فى رأيه انما هى الروح الحية المتدفقة فى الدم ، وهى تموت مع الجسد (٦٣) . وحاول طبيب يهودى يسمى صموئيل داسيلفا الرد على آراء أكوستا . فنشر بالبرتغالية « رســالة فى خــلود النفس » (١٦٢٣) وصف فيها أكوستا بانه جاهل ، عاجز ، أعمى . ورد أوريل بكتاب سماه « فحص للتقاليد الفريسية ... ورد على صموئيل داسيلفا ، المفترى الكذاب » (١٦٢٤) . ورغبة فى حماية الحرية الدينية للجالية اليهودية ، أعلم زعماؤها قضاة امستردام بأن أكوستا بانكاره الخــلود انما يقوض المسيحية كما يقوض اليهودية . فقبض عليــه القضــاة ، وغرموه ثلاثمائة جولدن ، وأحرقوا كتابه . وما لبث أن أفرج عنــه ، ويبدو أنه لم يلحق به أذى بدنى .

على أن عقابه كان عقابا اقتصاديا واجتماعيا . ذلك أن اخــوته الصغار أصبحوا معتمدين عليه ، واذن فعلى حريته ــ المحرمة الآن ــ

في الدخول فى علاقات اقتصادية مع اخوانه • ولعل هذا السبب ، فضلا عن رغبته في الزواج ثانية ، هو ما دعا أوريل الى أن يقرر الخضوع للمجمع ، وانكار هرطقاته ، وأن يصبح « قردا بين القردة (٦٤) » على حد تعبيره • وقبل انكاره (١٦٣٣) وعاش الشكاك المتحمس حينا فى سلام نسبى • ولكن هرطقاته استمرت فى الخفاء واتسعت • كتب فى فترة لاحقة يقول « لقد خامرنى الشك فى ناموس موسي ، أهو حقا ناموس الله ، ثم انتهيت الى أنه من مصدر بشرى (٦٥) » • ونبذ الآن الدين كله ، اللهم الا ايمانا غامضا بالله هو والطبيعة واحد (كما كان ايمان سبينوزا فيما بعد) • وأهمل الممارسات الدينية الثقيلة المفروضة على اليهودي السنى • فلما جاءه مسيحيان يعلنان عن رغبتهما فى اعتناق اليهودية ثناهما وحذرهما من النير الثقيل الذى سيضعانه فوق عنقيهما • فأنهيا ذلك الى المجمع • فاستدعاه الاحبار واستجوبوه ، ووجدوه غير نادم ، فأوقعوا عليه الآن حرما آخر أشد صرامة من سابقه (١٦٣٩) • وعاد أقرباؤه يقصونه عن حياتهم ، وشارك اخوه يوسف فى اضطهاده (٦٦) •

واحتمل هذه العزلة سبع سنين ، ثم عرض الخضوع حين وجدها تؤذيه أذى بلبغا فى رزقه وأمام القانون • واذ أسخط القادة اليهود طول مقاومته وما جرت عليهم من متاعب ، فقد حكموا عليه بضرب من الانكار والتكفير نقلوه عن ديوان التفتيش البرتغالى (٦٧)• فاكره ، على طريقة احتفالات الديوان بادانة المهرطقين ، على أن يرقى منصة فى المجمع ، ويتلو أمام جمهور كبير من المصلين اعترافا بأخطائه وذنوبه ، ويتعهد بأغلظ الايمان أنه منذ الآن سيمتثل لكل نظم الجماعة ويعيش عيشة اليهودي الصالح • ثم خلعت ثيابه الى خصره ، وجلد تسعا وثلاثين جلدة • وأخيرا أجبر على ان يطرح نفسه على عتبة المجمع ، وخطا من فوقه الحاضرون وهم يغادرون المكان وفيهم أخوه الذى كان يناصبه العداء •

وقام من هذه العقوبة المذلة لا مذعنا بل ناقما ساخطا • فمضي الى بيته ، وأغلق على نفسه باب مكتبه عدة أيام وليال ، وكتب آخر وأمر تنديداته باليهودية التى ضحى بالكثير فى سبيل اعتناقها ، والتى لم يفهم قط فى تعاطف تاريخها الانطوائى ، وصرامتها الواقية التى

فرغتها عليها قرون من الظلم . وفى كتابه هذا « مثال من حياة البشر» قص سيرته الفكرية مثالا على ما يصيب الانسان المفكر . وقد أحس بأن « كل الشرور تنجم عن عدم أتباع العقل الرشيد وقانون الطبيعة (٦٨)» وقابل بين الدين « الطبيعى » والدين الموحى ، وزعم أن هـــذا يعلم الناس البغضاء ، أما ذاك فيعلمهم المحبة . فلما فرغ من مخطوطته ، حشا طبنجتين ، وترصد بجوار نافذته لأخيه يوسف حتى مر ، وأطلق عليه النار فأخطأه (٦٩) . ثم أطلق على نفسه الرصاص (١٦٤٧ ؟) .

وحاول المجتمع اليهودى أن يدفن هذه الفاجعة فى صمت ، ولكن لابد أن بعض أفراده وجدوا نسيانها عسيرا . وكان سبينوزا غلاما فى الخامسة عشرة حين أوقع على أكوستا طقس الحرم ، ولعله كان بين جماعة العابدين الذين رأوه يوقع عليه ، ولعله مشي فى رهبة وارتياع فوق جسد المهرطق المطروح أرضا . وعن طــريق ذلك الفتى ، دخلت رؤيا أكوستا تراث الفلسفة بعد أن تطهرت مما علق بها من سخط (٧٠) .

obeikandl.com